الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن رشيق

١ — ابن رشيق الناثر

رسالة

كتب الشيخ أبو على الحسن بن رشيق الأزدى إلى أبى الحسن على بن القاسم اللواتى رحمهما الله وكانت له عنده أياد ونعم [١] :

« أمْتَعَ الله إخوانك ببقائك، وكفاهُم الاساءةَ فيك ، وجعلنى من بينهم الفِداءَ لك . وأسأل الذى شَرَح للعلم صدْرَك ، وعمر بالذكر قلْبَك ، وبسط بالحُجّة لسانَك، وبالخير يدَك، وقَرَن بالسَّداد قولك، وبالسَّداد[٢] عملَك ، أن يجرى مناظرك فى حسن الأدب على رَسْمِك . ويجعل الإنْصاف كما تُؤثر حكَمًا بينك وبين خصْمِك، وقد بلغنى أعزّك الله — أنك استحسنت معنى البيتين من مرثية الأمير سيدنا أبى منصور ، وهما الأخيران من هذه الأربعة الأبيات :

ألَمْ يرهُم كيف استقلّوا[٣] ضحى ... إلى كنفٍ من رحمة الله واسعِ
إمام خميس ماج فى البرّ بحرُه ... يسيرُ كمتن اللّجة المتدافع[٤]
إذا ضربت فيه الطبول تتابعت ... به عِذبٌ تحكى ارتعادَ الأصابع[٥]

---

(١) النص من رسالة له فى السرقات «اسمها قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب» وسبقت الإشارة إليها .
(٢) السداد : الرشاد والصواب .
(٣) استقلوا : نقلوا وحملوا .
(٤) الخميس الجيش ، وماج فى البر بحره .. إلخ . كناية عن كثرة جنده والبيت بعده يكمل الصورة.
(٥) من تمام وصف الجيش بالكثرة وكذا البيت بعده .

تجاوبَ نَوْحٌ بات يندب شجوه وأيدى ثكالى فوجئت بالفواجعِ

وأن بعض من لا خلاقَ له فى الأدب ، ولا معرفة له بحقائق الكلام ، عارضك فيهما بالطعْن ، ونازعك معناهما بالجهْل وادّعى عليهما ضربًا من السرق ونوعًا من الأخذ — ولم تؤت — أيدك الله — من قصر لسان ، ولا ضعف حجة وبيان ، لكنما أُتيت من سوء فهم صاحبك وقلة إنصاف مشاغبك » .

تحليل لظاهرة سلوكية

وكتب تحت عنوان باب العتاب فقال يبين حقيقة العتاب وما يجر إليه إذا لم يتلطف فيه :

العِتاب وإن كان حياة المودّة ، وشاهدَ الوفاء فإنه بابٌ من أبواب الخديعة يسرع إلى الهجاء ، وسببٌ وكيدٌ من أسباب القطيعة والجفاء ، فإذا قلّ كان داعية الأُلْفة . وقيد الصُّحْبة ، وإذا كثر خشن جانبُه وثقل صاحبُه ، وللعتاب طرائقُ كثيرة وللناس فيه ضروبٌ مختلفة . فمنه ما يمازجُه الاستعطافُ والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاجُ والانتصاف وقد يعرض فيه المَنّ والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف . وأحسن الناس طريقًا فى عتاب الأشراف . شيخ الصناعة ، وسيّد الجماعة أبو عبادة البحترى الذى يقول :

يَريبُنى الشىء تأتى بــه وأُكْبِر قَدْرَكَ أنْ أستريبا[1]

وأكــره أن أتمادَى على سَبيل اغترارٍ فألقى شَعُوبا[2]

أكذّبُ ظنّى بأنْ قد سخطتَ وما كنتُ أعهدُ ظنى كذوبا

ولو لم تكنْ ساخطًا لم أكنْ أذمُّ الزمانَ وأشكو الخطوبا

ولا بُدَّ من لومــة أنتحى عليك بها مخطئًا أو مصيبا

---

(١) رابه الأمر إذا شك فيه .

(٢) الشعوب : المنية هو اسم غير متصرف .

أيصبحُ وِرْدِىَ فى ساحتَيْك ... طروقا ومَرعاى مَحْلا جديبا[١]
أبيـــع الأحبةَ بيعَ السوام ... وآسى عليهم حبيبًا حبيبا
ففى كل يوم لنا موقفٌ ... يُشَقَّقُ فيه الوداعُ الجيوبا[٢]
وما كان سُخْطك إلا الفراقَ ... أفاض الدموعَ وأشجى القلوبا[٣]
ولو كنتُ أعْلم ذنبًا لمـا ... تَخَالَجَنى الشك فى أن أتوبا
سأصْبِر حـتى ألاقى رضا ... ك إمَّا بعيداً وإمَّا قريبا
أراقب رأيك حـتى يصح ... وانظرُ عطفك حتى يؤوبا

الفأل والطيرة

وكتب تحت عنوان باب من الزجر والعيافة فقال :

« وعنهما يكون الفـأل والطيرة ، وبين الطيرة والفأل فرقان عند أهل النظر والمعرفة والحقائق ، وذلك أن الفألَ تقوية للعزيمة ، وتحضيضٌ على البغية ، وإطماع فى النية ، والطيرة تكسر النية وتصدّ عن الوجهة ، وتَثْنى العزيمة . وفى ذلك ما يعطل الإحالة على المقادير ، وقد تفاءَلَ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ونهى عن الطيرة فى قوله « لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ، ولا صفر ... » والطيرة من أحد شيئين مشتقة ، إما من الطيران كأن الذى يرى ما يكرهُ أو يسمعُ يطير كما قال بعضهم :

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عَوى
وصوّتَ إنسانٌ فكدت أطيرُ[٤]

---

(١) الورد مكان ورود القوم للاستقاء ، والمحل والجديب : الذى لا زرع فيه ولا ضرع كناية عن الخراب .

(٢) جيب الثوب طوقه وفتحته التى يلبس منها وعليه قول الشاعر :

فشق على الجيب بانه معبد

(٣) أشجى القلوب : أحزنها .

(٤) استأنست بالذئب : اطمأننت له .

وإما من الطير وهو الأصل والمختار من الوجهين . هكذا ذكر الزجاجى . . وكانت العرب تزجُر الطير والوحش ، فمن قال بالقول الأول احتجّ بأن الوحش يطير بها . . ومن قال بالقول الثانى قال : إنما كان الأصل فى الطير ثم صار فى الوحش ، وقد يجوز أن يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه ويردان جميعًا ، أنشد الجاحظ :

ما يعيف اليومَ فى الطير الدوَح من غراب البين أو تيس بُرَح

قال ، فجعل التيسَ من الطير إذ قدم ذِكْرَ الطير ، وجعله منها فى معنى التطير . . . والسَّانح الذى يلقاك وميامنه عن ميامنك ، والبارح الذى يلقاك وشمائله عن شمائلك ، والجابه والنَّاطح اللذان يستقبلانك ، والقعيد الذى يأتيك من ورائك . . .

٢ – ابن رشيق الناقد :

نقد وتحليل

تدور مباحث كتاب العمدة لابن رشيق حول النقد والبلاغة كما أسبقت وله فى ذلك الباع الذى لا يطاول – وهذه عينة من نقده وتحليله .

كتب تحت عنوان باب النظم ، يذكر قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال(١)
ولم أسْبأ الزقّ الرَّدىّ ولم أقُلْ لخيلى كرى كرةً بعد إجفال(٢)

فقال :

وكان قد ورد على سيف الدولة رجلٌ بغدادى يعرف بالمنتخب لا يكاد يسلم منه أحد من القدماء والمحدَثين ، ولا يذكر شعر بحضرته إلا عابَه ، وظهر

(١) تبطن الدابة شد بطانها وهو الحزام ، وتبطن الشىء دخل فيه والمعنى لاقى الكواعب والكاعب : الفتاة نهد ثديها وبرز .

(٢) سبأ الخمر : شراها ليشربها ، والروى الذى يروى ، ومنه شراب روى : فعيل بمعنى فاعل وأجفل الحصان إذا حرن من قوة أو شراس .

على صاحبه بالحجة الواضحة. فأنشد يوماً هذين البيتين فقال : قد خالف فيهما وأنشد . أما لو قال :

كأنّ لم أركب جواداً ولم أقل ... لخيلىَ كرّى كرّةً بعدإجفالِ

ولِم أسبأ الزّقّ الروىّ للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذاتخلخالِ

لكان قد جمع بين الشيء وشكله . فذكر الجود والكر فى بيت ، وذكر النساء والخمر فى بيت . . — قال ابن رشيق — فالتبس الأمر بين يدى سيف الدولة وسلموا له ما قال . فقال رجل ممن حضر : ولا كرامة لهذا الرأى : الله أصدق منك حيث يقول: « إنّ لك ألاّ تَجوعَ فيها ولا تَعْرَى ،وأنّك لا تظمأُ فيها ولا تَضْحَى » . فأتى بالجوع مع العرى . ولم يأت به مع الظمأ، فسرّ سيف الدولة وأجازه بصلة حسنة . قال صاحب الكتاب — يعنى ابن رشيق — قول امرئ القيس أصوب ومعناه أعز وأغرب . لأن اللذة التى ذكرها ، إنما هى الصيد ، هكذا قال العلماء . ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء فجمع فى البيت الأول معنيين ، ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة ، وفضيلة شريفة تدلّ على السلطان ، وكذلك البيت الثانى لو نظمه على ما قال ، لكان ذكر اللذة حشواً لا فائدة فيه لأن الزق لا يُسبأ إلا للذة ، فإن جعل الفتوة كما جعلناه فيما تقدم الصيد ، قلنا فى ذكر الزقّ الروىّ كفاية ، ولكن امرأ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وصفها بالتملك والرفاهة .

وأما احتجاج الآخر بقول الله عز وجل فليس من هذا فى شيء لأنه أجرى الخطاب على مستعمل العادة ؛ وفيه مع ذلك تناسب لأن العادة أن يقال : جائع عريان ، ولم يستعمل فى هذا الموضع ظمآن ولا عطشان ، وقوله تعالى تظمأ وتضحى متناسب لأن الضاحى هو الذى لا يستره شيء عن الشمس ، والظمأ من شأن مَن كانت هذه حاله . . . وقال الجاحظ : فى القرآن معان لا تكاد تفترق من مثل الصلاة والزكاة ، والخوف والجوع ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس ، والسمع والبصر . . .

ومن الشعراء من يضع كل لفظة موضعها ، لا يعدوه ، فيكون كلامه ظاهراً غير مُشْكل ، وسهلاً غير متكلَّف ، ومنهم من يقدّم ويؤخّر إما لضرورة وزن ، أو قافية وهو أعذر ، وإما ليدل على أنه يعلم تصريف الكلام ، ويقدر على تعقيده ، وهذا هو العيّ بعينه ، وكذلك استعمال الغرائب التى يقل مثلها فى الكلام ، فقد عيب على مَن لا تعلق به التهمةُ نحو قول الفرزدق :

على حالة لو أن فى البحر حاتماً على جوده ما جاد بالماء حاتم

فخفض حاتماً — الأخيرة — على البدل من الهاء فى « جوده » حتى رأى قوم من العلماء أن الإقواء[١] فى هذا الموضع خير من سلامة الإعراب مع الكلفة[٢] . . .

٣ — ابن رشيق الشاعر :

وكل ما نقدمه بين يدى القارئ من شعر الشاعر ، فمنثور فى بطون الكتب ، وخاصة التراجم والطبقات ، ولم يجمعه ديوان خاص به ، وقد حاول جمع منثوره هذا ، أبو البركات عبد العزيز الميمنى الأستاذ بالكلية الشرقية فى لاهور ، الهند . وقد اعتمدت عليه كثيراً فيما أقدم :

(١) الوصف :

زرافة

اهديت إلى المعز بن باديس زرافة رآها ابن رشيق فقال فيها :

ومجنوبةٍ أبداً لم تكن مذلّلةَ الظهرِ للراكبِ[٣]

---

(١) الإقواء : هو مخالفة بعض الأبيات لبعض فى حركة الروى بالضم والكسر مثلا .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٧٤ ط هندية .

(٣) المجنوب والجنيب : فرس كان فرسان العرب يسوقونه إلى جنب فرسهم الذى يركبون ليستبدلوه به ، ولم تكن مذللة الظهر ؛ أى لم تعد للركوب .

قد اتصل الجيدُ من ظهرها بمثل السَّنام بلا غاربِ[١]
مُلمّعــة مثل ما لُمِّعَتْ بحنــاءِ وشيِ يدُ الكاعبِ
كأن الجــوارىَ كنَّفْتَهَا لحالخَ من كلِّ ما جانب[٢]

هلال رمضان

وقال يصف هلال رمضان و يشير إلى ما بنفسه نحوه إذ يلزمه الصيام والبعد عن الشراب :

لاح لى حاجبُ الهلال عشيًّا فتمنيتُ أنــنى من سحاب
قلت : أهلاً وليس أهلا لما قا لت ولكن أسمعتها أصحابى
مظهراً حبَّه وعندىَ بغض لعدوّ الكئوسِ والأكواب

بحر هائج

وله فى وصف البحر وقد ركبه إلى صقلية فعصفت الرياح ، وثارت الأمواج ولكن لم ينسه ذلك ذكر المحبوبة وتخيل مناجاتها :

ولقد ذكرتكِ فى السفينة والردى متَوقَّعٌ بتلاطم الأمواج[٣]
والجو يهطِلُ والرياحُ عواصفٌ والليــل مسودُّ الذوائبِ داجِ[٤]
وعلى السواحل للأعادى غارة يتوقعــون لغــارة وتناجِ
وعلت لأصحاب السفينة ضجةٌ وأنا وذكركِ فى ألذ تناجِ[٥]

---

(١) الغارب ما بين السنام والعنق .
(٢) كنف الشيء إذا حاطه ليصونه ، وكنف الإبل عمل لها حظيرة .
(٣) الردى : الهلاك .
(٤) الذوائب جمع ذؤابة وهى خصلة من الشعر فى مقدم الرأس .
(٥) التناجى : المسارة بالأحاديث ، والنجى : السر ، ومن تفاوضه بالسر .

الثريا

وقال يصف الثريا :

يا حبَّذا من بنات الشمس سائلةٌ ... على جوانبها تهفو المصابيحُ
كأنهـا ربوةٌ صمّاءُ كلَّلها ... نَوْرُ البَهار وقد هبت لها ريحُ

فواكه وزهور

وله فى التاريخ ، ووصف الزهور والنور والرياحين مما أجاد فيه أيما إجادة :

ودوحة نارنج بُهِتنا بحسنها ... وقد نشرت أغصانَها للتأوّدِ (١)
ونارنجُهـا فوق الغصون كأنه ... نجوم عقيق فى سماء زبرجدِ (٢)

وقريب منه قول ابن المعتز :

وكأنمـا النارنجُ فى أغصانه ... من خالص الذهب الذى لم يخلطِ
كرةٌ رماها الصولجان إلى الهوا ... فتعلقت فى جوّه لم تسقطِ

وله يصف البنفسج :

بنفسجٌ جاءكَ فى حين لا ... حرّ يُرى فيه ولا قَرْط بَرَدْ
كأنـه لمـا أتينـا بـهِ ... منغمسُ الأثوابِ فى اللاَّزوَرْدْ

وله فيه أيضاً :

رأيت شقيقـةً حمراء بادٍ ... على أطرافها لطخ السَّوادِ
يلوحُ بها فأحْسَن ما تراه ... على شَفَةَ الصبيّ من المدادِ

---

(١) التأود : التثنى .
(٢) العقيق : حجر كريم أحمر اللون ، والزبرجد : أخضره .
(٣) اللازورد : زهر .

وقال فى الموز :

لله مـــوزٌ لذيذٌ يعيـــذه المستعيـــذُ
فواكـــهٌ وشَرابٌ به يُداوى الوقيذُ[١]

رحلة

وقال فى السفر والارتحال :

وماءٍ بعيدِ الغَوْر كالنَّجمْ فى الدُّجَى
وردتُ طروقًا أو وردتُ مهجّرا
على قدمٍ أخت الجناح وأخمص
يخال حصـــا المعْزَاء جَمْرًا مُسَعّرا[٢]
فريداً من الأصحاب صَلْتا من الكُسا
كما أسلم الغمدُ الحسامَ المذكـــرا[٣]

خال جميل

وله فى وصف خال بدا تحت لحى صاحبه :

حبذا الخالُ كامنا منه بين ال سجيد والخـــد رقبةً وحِذارا
رام تقبيلَه اختلاسًا ولكن خاف من سيف لحظه فتوارى

---

(١) الوقيذ : الصريع أو المشرف على الموت .

(٢) أخت الجناح : يريد السرعة . والأخمص : الضامر البطن وذلك من صفة الجمال فى الخيل ، المعزاء ، الأمعز من الأرض : الصلب الكثير الحجارة والحصى .

(٣) صلتا من الكسى : وصف للفرس يريد أنه أجرد من الشعر وتلك أيضاً من شيات الأصالة فى الخيل قال امرؤ القيس :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الاوابد هيكل

مطلع الفجر

وله من الرجز فى طلوع الصبح :

كأنمـــا الصبحُ الذى تفرَّى
ضمَّ إلى الشرق ، النجومَ الزُّهرا
فاختلطت فيـــه فصارت فجرا

الطبيعة فى الشتاء

ووصف الغيم والمطر والبرق فقال :

خليلىَ هل للمُزْنِ مقلة عاشقٍ أم النارُ فى أحشائها وهى لا تدرى
سحابٌ حكتْ ثكلى أصيب وحيدها فعاجت له نحو الرياض على قبر (١)
تُرَقرِق دمعًا فى خدود توشحت مطارفها بالبرق طُرْزا من التبر (٢)
فَوَشْىٌ بلا رَقْم ونَسجٌ بلا يدٍ وَدمْعٌ بلا عين وضِحْك بلا ثغر

أترجة

قال ابن بسام فى الذخيرة : دخل ابن رشيق على المعز بن باديس يوماً ، وفى يده أترجة كأنها واسطة ذهب ، أو جذوة لهب ، قال ابن رشيق : فأشار إلى بوصفها فقلت للخاطر :

أُتْرُجَّةٌ سَبْطةُ الأطرافِ ناعمةٌ
تَلْقَى النفـــوس بحظ غيرِ منحوس
كأنما بَسَطتْ كفًّا لخالقها
تدعـــو بطـــول بقاءٍ لابن باديس

---

(١) عاج : مال .

(٢) طرزا : جمع طراز وهو القطعة من النسيج . والتبر : الذهب ، توشحت : تغطت والمطارف الأردية وفى البيت تشبيه بديع للسحاب ينزل منه المطر ويلمع فى جنباته البرق كالذهب .

غلط الليل

وله فى طول الليل :

قد طال حتى خلتُه من كل ناحية وسطْ
وتكررت فيه المنازل منْه لامنّى الغلط

الطبيعة

وقال فى كتابه الأنموذج ، خرج أبو العباس ابن حديدة القيروانى فى جماعة من رفقائه طالباً للتنزه ، فحلوا بروضة قد سفرت عن وجنات الشقيق وأطلعت فى زبرجد الأرض الخضراء نجوماً من عقيق ، والجو قد أفرط فى تعبيسه ، ونثر لفيظه جميع ما كان من لؤلؤ القطر فى كيسه ، فقال ابن حديدة .

أو ما ترى الغيث المعرّس باكيا يُذْرِى الدموعَ على رياض شقيق[1]
فكأن قَطْر دموعه من فوقها دُرٌّ تبدَّدَ فى بساط عقيق[2]

قال ابن رشيق — وأنشد نيهما فأجزتهما بأن قلت :

فاجمع إلى شكليهما بزجاجة شكلين من حَبَب وصفو رحيق
فكأنما انتصرا لعَبْرة عاشق مُهْرَاقة فى وَجْنَتَىْ معشوق[3]

وله أيضاً فى المعنى نفسه :

نظرتُ إلى البستان أحسن منظرٍ وقد حجب الأغصانُ شمس المشارق
بـــه زوج رمان يلوح كأنه قناديل تبر محكمات العلائق

طير أبابيل

وقال فى الصيد :

طيرٌ أبابيلُ جاءتنا فما برحت إلا وأقواسُنا الطيرُ الأبابيل[4]

---

(١) رياض شقيق : الشقيق زهر أحمر برى ، ومنه شقائق النعمان ، المعرس : المقيم يريد المتواصل هطوله .

(٢) بساط العقيق يريد به الخضرة تكسو الأرض . ويريد بالدر قطر الغيث على التشبيه .

(٣) هراق الماء إذا صبه وأراقه ، والوجنة ما ارتفع من الخدين وجمعه وجنات .

(٤) أبابيل : كثيرة .

ترميهمُ بحصى طـير مسوّمة كأن معدنها للرمى سجيل[١]
تعدو على ثقة منا بأطيبهـا فالنارُ تُقْدَح والطَّنْجير مغسول[٢]

مناجاة

وقال فى الليل وقد طال :

أقول كالمأسورِ فى ليلـة ألقتْ على الآفاق كلكالَها[٣]
يا ليلـةَ الهجو التى ليتَها قطَّع سيفُ الهجر أوصالها
ما أحسنتْ جُمْلاً ولا أجملت هذا وليس الحسن إلا لها

تفاحة

ووصف تفاحة فقال :

تفاحـةٌ شاميّـةٌ من كف ظبى أكحل
ما خلقت مذ خلقت تلك لغير القبَلِ
كأنمـا حمرتُهـا حمـرةُ خد خجِل

ذكور الحجل

وقال وأبدع فى وصف اليعاقيب وهى ذكور الحجل ذلك الطائر الطيب اللحم الجميل الخلق الحسن الزينة .

ما أغربت فى زِيهـا إلا يعاقيب الحَجَل
جاءتك مثقـلةَ الذرا ثب بالحلِىّ وبالحُلَل

---

(١) مسومة : معلمة . والسجيل حجارة كالطين اليابس .

(٢) الطنجرة : قدر من نحاس ، وهى من الدخيل ، الطنجير : لنفس المعنى . وفاعل تعدو هو ضمير الأقواس فى البيت الأول .

(٣) المأسور : من وقع فى الأسار . والكلكال والكلكل شىء واحد .

صفر العيون كأنها باتت يتبرْ تكتحل[١]
وتخالهـــا قد وكلت بالنون والصوت الزجِل
وكأنمـــا باتت أصا بعها بحنّـــاء تُعـَلّ
من يستحلّ لصيدها فأنا امرؤ لاً أستحل

هدية من هدايا الملوك

وقال رحمه الله فى العمدة : وصنعت أنا فى زرافة أتت فى الهدية من مصر إلى مولانا — المعز من قصيدة طويلة :

وأتتك من كسب الملوك زرافةٌ شتّى الصفاتِ لكونها إثناء
جمعت محاسن ماحكت فتناسبت فى خلقها وتنافت الأعضاء
تحتثها بين الخوافق مشيـــةٌ باد عليها الكبْر والخيلاء[٢]
وتمد جيدًا فى الهواء يزينهـــا فكأنه تحت اللواء لـــواء
حطت مآخرُها وأشرف صدرُها حتّى كأن وقوفها إقعاء[٣]
وكأن فهرَ الطيب مارجـَمـَت به وجهَ الثرى، لو لمّت الأجزاء[٤]
وتخيرت دون الملابس حلـــةً عـَيـَّت لصنعة مثلها صنعاء[٥]
لونًا كلون الزَّبل إلا أنـــه حـَلـَىٌ وجـَزّع بعضه الجلاّء
أو كالسحاب المكفهرة خـَيـَّطت فيه البروقُ ؛ وميضها الإيماء
أومثل ما صدئت صفائح جوشن وجرى على حافاتهنّ جلاء[٦]
نعم التجافيف التى أدرعت به من جلدها لو كان فيه وفاء

---

(١) التبر : الذهب يريد صفرة عينه . (٢) تحتثها : تحثها على المسير .
(٣) الإقعاء : جلوس الكلب على مؤخرته قالوا :
يقعى جلوس البدوى المصطلى
(٤) فهر الطيب : الفهرة حجر رقيق تسحق فيه الأدوية ويريد الشاعر به مامس الأرض قوائمها . لمت الأجزاء : جمعت .
(٥) صنعاء : هى صنعاء اليمن ، مدينة شهرت بصناعة النسيج المنقوش . وعيت : عجزت .
(٦) الجوشن : الدرع .

فى حمام

وقال يصف جماعة فى حمام من حمامات العصور البائدة . والتى لا تزال منها بقية فى أحياء القاهرة القديمة ، وكذا فى دمشق :

ومرتهنٍ لدى الحمام أضحى وحالاه كأصحاب السعيرِ
إذا سئموا العذابَ أو استغاثوا أغاثوهمْ بباب الزمهريرِ
كذلك حاله حرًّا وبَرْداً ببيتِ الحوضِ أو بيتِ الطهورِ[1]

(ب) الملح والنوادر :

وهو باب وضعنا تحته كل شعر فكه طريف ، وإن أمكن وضعه تحت باب آخر .

إن شر الدّواب

قال يوصى بالبغل :

فأوصيكمُ بالبغلِ شرًّا فإنه من العَيْر فى سوء الطباع قريبُ
وكيف يجىء البغلُ يومًا بحاجة تَسُرُّ وفيه للحمار نصيب ؟

الثريا

وجمعه يوماً وعبد الوهاب بن محمد الأزدى المعروف بالنقال مجلس ، فأنشده ابن رشيق قوله من قصيدة :

والثريا قبالةَ البدرِ تحكى باسطًا كفَّه ليقبض جاما[2]

وقوله :

رأيت بَهرام والثريا والمشترى فى القران كرة
كراحة خُيِّرت فحارت ما بين ياقوتة ودرة

---

(١) بيت الحوض وبيت الطهور : مكانان فى الحمامات العامة أولهما يملأ بالماء الساخن لإزالة ما علق على الجسوم من درن ، والثانى يملأ بالماء البارد للتطهر قبل مغادرة الحمام .

(٢) الثريا : سبعة كواكب فى عنق الثور ، والجام : الكاس .

فاستظرف الشعر عبد الوهاب وأنشده :

يا ساقيَ الراحِ اسْقِ صحبي ... وواسني إنني أواسي
وانظر إلى حيرة الثريا ... والليلُ قد شُدَّ بأمراس[1]
ما بين بهرامها الملاحي ... وبين برجيسها المواسي
كأنها راحة أشارت ... لأخذ تفاحة وكاس

وكأنما كانت بينه وبين البغل صلة ، فما أكثر ما يقول فيه ، ومن ذلك قوله وقد ركب بغلة :

كأنى بعض نجوم السماء ... تَصَعَّدَ فى الجو ثم انحدر
على رَسْلة من هبات الملوك ... سفواء ملمومة كالحجر[2]
تعاوَنَ فىَّ جدْل أعضائها ... بنو أخدر وبنات الأغر[3]

بغلة سفواء

وفى البغال أيضاً :

أو بغلة سفواءَ تعرض للفتى ... فتُخالُ تحت السرج أمَّ غزال
سألتْ إلى الأم النجابة من أب ... وزهت على الأعمام والأخوال
وكأنها قد أفرغت فى قالَبَ ... لا أنها خلقت على تمثال

وله فى التلاعب باللغة فصحف الدينار والدرهم :

صحفت دالين من دي ... نار يلوح ودرهمْ
فقال لى ذلكم « ذى ... نار » وذا قال « ذرهمْ »

---

(١) الأمراس : الحبال .

(٢) يريد قليلة شعر الناصية . وذلك من علائم النجابة فى الخيل والبغال .

(٣) بنو اخدر يقصد الحمار الوحشى أو الحمار الأسود ، وهذا أقرب ، وبنو الأغر يريد به كرام الخيل وذلك أن البغل يأتى من وقوع حصان على أتان أو حمار على فرس .

وله أيضاً فى وصف بغلة :

إذا أقبلت أقعت وإن أدبرت كبَتْ
وتَعْرِضُ طولا فى العِنان فتستوى[١]
وكلفت حاجاتى شبيهةَ طائر
إذا انتشرت ظلت لها الأرض تنطوى

(ح) الحكمة :

وذلك باب لابن رشيق فيه شعر كثير منثور فى كتبه ، وفى غيرها من الكتب التى عرضت له . وقد اخترت له منه :

فى الإعراض عن الجاهل

قال فى الإعراض عن الجاهل :

أيها الموحى إلينا نَفْثَةَ الصِلِّ الصَّموتِ[٢]
ما سكتنا عنك عَيًّا رُبَّ نطقٍ فى السكوتِ
لك بيتٌ فى بيوت مثل بيتِ العنكبوتِ
إن يهن وَهْنا ففيه حيلتا سكنى وقوتِ[٣]

لعنة الشيطان

وقال فى التحريض على مخالفة الشيطان بعد أن صور مداخله على الإنسان :

أرى الشيخَ إبليسَ ذاعلة فلا بَرَأ الشيخُ من عِلَّتِهْ
يقود على الحبِّ مستيقظًا ويأتيك بالليل فى صورتِهْ

---

(١) أقعت : وقفت على مؤخرتها صنع الكلب فى جلسته .
(٢) الصل الصموت : الحية والداهية .
(٣) الوهن : الضعف .

فيؤْتيك ما شاءَ من نفسه ... ويبلغُ ما شاء من لذّتهْ
ومن كان ذا حيلة هكذا ... تَمثّل للمرء فى يقْظتهْ
فلا تَزْخَروا دونه لعنةً ... لأن رضا الله فى لعنتهْ

وشاورهم فى الأمر

وله فى أدب المشاورة :

أشاورُ أقوامًا لآخذَ رأيهمْ ... فيلوونَ عنّى أعينًا وخُدودا[1]
وليس برأيى حاجةٌ غيرَ أننى ... أونّسه كيلا يكون وحيدا[2]
ولا أنا ممّنْ يبعثُ السّهم راميًا ... إلى غرض حتى يكون سديدا
فلا يتهمْ عقلى الرجالُ ، فاننى ... أعرفهم أنى خُلقتُ ودودا

تجربة وخبرة

وقال عن تجاربه وكيف عزم على القصد فى النفقة ولكن نفسه لم تطاوعه :

قد أحكمتْ منى التجار ... ب كل شىء غيرَ جودى
أبداً أقول لئن كسبـ ... ـتُ لأقبضنّ يَدىْ شديدِ
حتى إذا أثريتُ عُدْ ... تُ إلى السّماحة من جديدِ
إن المُقام بمثل حا ... لى لا يتمُّ مع القعودِ
لا بُدَّ لى من رحلة ... تُدنى من الأمل البعيدِ

عزة وإباء

قال فى الانتصاف للنفس :

إذا لم تجد بدًّا من القول فانتصفْ
بحد لسان كالحسام المهنّدِ

---

(١) لوى على وجهه : إذا أعرض .

(٢) أونسه : أجعل له مؤنساً من رأى غيرى قال الشاعر :

فرأيان أحسن من واحـد ... ورأى الثلاثة لا ينقض

فقد يَدْفَعُ الإنسانُ عن نفسه الأذى
بِمِقْوله إن لم يدافعه باليدِ[١]

وقال فى قريب من هذا :

خذ العفو ، وأبَ الضيم ، واجتنب الأذى
وأغْضِ تسد ، وارفق تنل ، واسخ تُحمد[٢]

الناس معادن

وقال عن الناس ومذاهبهم :

فى الناس من لا يُرتجى نفعُه إلا إذا مُسَّ بإضرارِ
كالعودِ لا يُطمع فى طيبه إلا إذا أحرِق بالنار

عش عزيزاً

وله أيضاً :

الأسْر خيرٌ من الفرارِ والقتل خيرٌ من الإسـار
وشرٌّ ما خِفْته حياةٌ أدّت إلى ذلّة وعارِ

وقال فى خيانة الأصدقاء :

صديق المرء كالدينارِ طبعًا وكيف يفارقُ المرءُ الطباعا
تراه إذا أقام يقيم جاها وإن فارقْته أجدى انتفاعا

حسن معاملة

وله فى الإخوان :

من جفانى فإننى غيرُ جافٍ صلةٌ أو قطيعةٌ فى عفاف
ربما هاجر الفتى من يصافيه ولاقى بالبشر من لا يصافى[٣]

---

(١) المقول : اللسان .

(٢) الضيم : المذلة والهوان . وأغضى عن الأمر : إذا لم يعره بالا .

(٣) هاجر : هجر .

نصيحة

وله ينصح :

اختر لنفسك من تُعا ... دى كاختيارك من تصادقْ
إن العدوّ أخو الصديـ ... ـق وإن تخالفت الطرائق

ويقول فى موقف آخر :

اصْحَبْ ذوى القدر واستَعْدبهم ... وعَدّ عن كل ساقط سَفِله
فصاحبُ المرءِ شاهدٌ ثقة ... يُقضى به غائبا عليه وله
ورقعة الثوب حين تلبسه ... شهرته ، أو تكون مُشتكلَه[1]

حسن سياسة

ويقول فى صلاته بالآخرين :

أحبّ أخى وإن أعرضتُ عنه ... وقَلّ على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تقطيبُ راض ... كما قطبتَ فى إثر المدام[2]
ورب تَقَطّبٍ من غير بغْض ... وبغضٍ كامن تحت ابتسام

ونختم هذا الباب بقوله الناتج عن خبر الحياة :

لو قيل لى خذ أمانا ... من حادثات الزمان
لما أخذت أمانًا ... إلا من الإخوانِ

---

(١) مشتكلة : مشاكلة للثوب فى لونه وجنسه .
(٢) التقطيب : التكشير . والمدام والمدامة : الخمر .

(ى) الغزل :

لوعة

وله فى هذا الباب شعر فيه تكشف سنمسك عن ذكره ونعرض عليك ما لا يجرح الحياء . قال ، وفيه مبالغة طريفة :

إن كنتَ تنكر ما منك ابتليتُ به
فإن بُرء سِقامى عزّ مطلبُه
أشرْ بعودٍ من الكبريت نحو فمى
وانظر إلى زَفَراتى كيف تُلهبه[1]

ليلة

وقال : كما قال الميمنى – فى غرض يظهر من الأبيات :

ومن حسنات الدهر عندىَ ليلةٌ من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
خلونا بها ننفى القَذَى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهبا سكبا[2]
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير تلتقط الحبا[3]

سمراء

وقال يصف سوداء ويدعوها للاعتزاز بسوادها :

دعا بكِ الحسنُ فاستجيبى يا مِسكُ فى صبغة وطيب
تيهى على البيض واستطيلى تيهَ شبابٍ على مشيب

---

(١) الزفرات جمع زفرة وهى التنفس مع مد النفس .
(٢) القذى : ما يصيب العين من رمص : ذهبا سكبا : مسكوباً .
(٣) جنوح الطير : ميلها ويقال جنحت السفينة إذا انحرفت .

ولا يرعْكِ اسوادُ لونٍ كمقلةِ الشادن الربيب(١)
فإنما النور عن سوادٍ في أعين الناس والقلوب(٢)

شوق ولوعة

وله في النسيب وقد برح به الشوق :

من ذا يعالج عنى ما أعالجه من حرّ شوق أذاب القلب لاعجه(٣)
ومن يكنْ لرَسيس الشوق داخله بكنْ لفرط الضنى والسقم خارجه(٤)
كادت خلاخيل من أهوى تبوح به
سرا وغصت بما فيها دمالجه(٥)

زيد وعمرو

وقال وأبدع في وصف الحبيبة وبيان مفاتنها في أجمل صورة جعلتها شغله واشتغاله .

بين أجفانك سحرُ ولأغصانك بدرُ
جردتْ عيناك سيفيـ ن ، لذا أمرك أمر

---

(١) الشادن : الغزال . الربيب : ابن الزوج ، وهنا المربوب المربى في النعمة .

(٢) قال ابن رشيق أخذته من قول الآخر ، أنشده الجاحظ :

مشبهات الشباب والمسك تفد يهن نفسي من الردى والخطوب
كيف يهوى الفتى اللبيب وصال البيض ، والبيض مشبهات المشيب

وعلق الشريشي على ذلك فقال : وأخذ بيته الآخر من قول الآخر ، أنشده الجاحظ أيضاً :

وإن سواد العين في العين نورها وما لبياض العين نور فيعلم

وفي المعنى أيضاً قول ابن رباح :

وسوداء الأديم إذا تبدت يرى ماء النعيم جرى عليه
رآها ناظري فصبا إليهـا وشبه الشيء منجذب إليه

وقد أكثر الشعراء من الخوض في المفاضلة بين البيض والسود .

(٣) لاعج الشوق : شديده .

(٤) الرسيس : أول الشيء . فرط الضنى : غاية السقم .

(٥) الدمالج ج . دملج والدملج : حلى يلبس في المعصم كالأساور .

فعلى خديك من نَزْ ... فِ دم العُشاق أثر
ومن الكثبان شطر ... لك والأغصان شطر
وسواء قلتُ درٌّ ... ما أرى أو قلتُ ثغرُ
وبماذا أصف الخَصْـ ... ـر وما إن لك خصر[1]
بك شغـــلى واشتغالى ... ومضى زيد وعمرو

عبرة وبكاء

وقال فى موقف وداع وقد اختفى فى الحمام ليبكى فى غفلة الرقباء :

ولم أدخل الحمام ساعةَ بينهم ... لأجل نعيم ، قد رضيت ببوس
ولكن لتجرى عبرتى مطمئنةً ... فأبكى ولا يَدْرِى بذاك جليسى

فتنة

وله فى الجفون :

وفاتن الأجفان ذى وَجنة ... كأنها فى الحسن وردُ الرياض
قلت له : يا ظبى خذ مهجتى ... داو بها تلك الجفون المراض
فجاوبتْ مِن خده خجلةٌ ... كيف ترى الحمرة فوق البياض!

جنود الملاحة

وقال وقد اقتبس من القرآن الكريم بعد أن جانس :

أسلمنى حُبّ سليماكمو ... إلى هوًى ، أيسره القتل
قالت لنا جند ملاحاته ... لما بدا ما قالت النمل
« قوموا ادخلوا مساكنكم قبل ... أن تحطمكم أعينه النجل »[3]

---

(١) إن فى « ما إن لك خصر » لتأكيد النفى .
(٢) الوجنة : ما علا من الخد .
(٣) مأخوذ من قوله تعالى « قالت نملة يأيها النمل أدخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده ».
سورة النمل

حب النمام

وقال فى بغض أهل الهوى لأهل النميمة وتلاعب بالألفاظ :

لِمْ كـــره النمامَ أهلُ الهوى! أساء إخوانى وما أحسنوا
إن كان نماما فمعكوسه من غير تكذيب لهم « مأمن »

(٨) الغلمان :

ولهم فى حياة ابن رشيق شأن ، يذكرهم فى شعره ، ويتحدث عن معابثهم ، وإليك بعض ما وقفنا عليه له . على أنا أمسكنا عن بعضه أن نذكره قال يصف واحداً منهم :

أومأ إلىَّ

ومهفهف يحميه عن نظر الورى غيرانُ ، سكنى الموت تحت قبابه
أومى إلىَّ أنْ ائتنى فأتيته والفجر يرمُق من خلال نقابه
فلثمت خدا منه ضرّم لوعتى . . . . . .
. . . . . .
فكأن قلبى من وراء ضلوعه طربا يُخبّر قلبَه عما به

سورة الحمد

وله فى آخره يعوّذه بسورة الحمد :

معتدل القامة والقدّ مورَّد الوجنة والخد
لو وُضع الوردُ على خده ما عُرف الخد من الورد
قل للذى يعجب من حسنه : اقر عليه «سورة الحمد»

وقال وناوله غلام — كانت له به صلات — تفاحة :

وتفاحةٍ من كف ظبيٍ أخذتها جناها من الغصن الذى مثل قده
لها لمس . . . . . .

العمامة الحمراء

وقال فى غلام معمّ بعمامة حمراء :

يا من يمر ولا تم ر به القلوب من الفَرق[1]
بعمامة من خده أو خده منها استُرِق
فكأنه وكأنها قمر تعمم بالشفق[2]
فإذا بدا وإذا انثنى وإذا شدا وإذا نطق
شغل الخواطر والجوا نحَ والمسامعَ والحدَق[3]

وقال فى ساق قهوة :

قم فاسقنى قهوةً إذا انبعثت فى باخل جاد بالذى مَلَكَه
كأن أيدى الرياح إذ بُسِطت فى متنه ، أظهرت لنا حبكهُ

---

(١) الفرق : الخوف .

(٢) الشفق : بقية ضوء الشمس وحمرتها فى أول قدوم الليل .

(٣) الحدق جمع حدقة يريد النظر .

قال ابن خفاجة فى ديوانه : وخرجت يوماً بشاطبة إلى باب السمارين ، ابتغاء الفرجة على خرير ذلك الماء بتلك الساقية سنة ٤٨٠ هـ . وإذا بالفقيه أبى عمران ابن أبى تليد رحمه الله ، قد سبقنى إلى ذلك فألفيته جالساً على دكان كانت هنالك مبنية لهذا الشأن فسلمت عليه ، وجلست إليه مستأنساً به ، فجرى أثناء ماتنا شدناه ذكر قول ابن رشيق « يا من يمر » الخمسة الأبيات فقلت — وقد أعجب بها جدا وأثنى عليها كثيراً — أحسن ما فى القطعة سياقة الأعداء . وإلا فأنت تراه قد استرسل ، فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذى قبله ، فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها ؛ وهل ينزل بإزاء قوله : « وإذا نطق » قوله « شغل . . الحدق » وكأنه نازعنى القول فى هذا غاية الجهد فقلت بديهاً :

ومهفهف طاوى الحشا خنث المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة تليت محاسنها سور

مدار الكئوس

وله فى آخر :

بنفسى من سُكان صَبْرةَ واحد ... هو الناسُ والباقون بعدُ فضولُ[١]
عزيز ، له نصفان ، ذا فى ازاره ... سمين وهذا فى الوشاح نحيل[٢]
مدار كئوس اللحظ منه مكحل ... ويقطف ورد الخد منه اسيل

إبليس

وقال فى إبليس وما يهيء له من أسباب الملذة :

رأيت إبليس من مروءته ... لكل مالا يطاقُ محتملا
إذا هويتُ امرءاً وأعجزنى ... جاء به فى الظلام معتقلاً
تبذّلاً منه فى حوائجنا ... ولا يزال الكريم مبتذلا

غلامه

وقال فى محبوبه الصائغ الذى اشتهر به وجرت له معه قصص تحدث عنها :

وظبى من بنى الكتّاب يَسْبِى ... قلوبَ العاشقين بمقلتيه
رفعتُ إليه أستقضى رضاه ... وأسأله خلاصًا من يديه
فوقّع : قد رددت فؤاد هذا ... مسامحُه فلا يُعْدَى عليه

= فإذا رنا وإذا مشى ... وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغزالة والغمامة ... والحمامة والقمر

فحين بها استحساناً .

(١) صبرة : اسم مدينة بشمال افريقية .

(٢) الوشاح قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها . ج وشح .

(و) الرثاء :

وما كان لابن رشيق أن يخلو شعره من مراث ينشدها حين يفتقد عزيزاً ، أو يجامل ملكاً أو ولى نعمة . أو يرى حضارة وقد ذهبت أو ملكاً وقد زال — فن رثاء الأشخاص قوله ، ويبدو أنه قاله فى عزيز أحبه :

المنايا حتم

المنايا حتم فطوبى لنفس سلّمت بالرضا لحكم القضاء
لو بودى قتلت نفسى لألقا ه ولكن خشيت فَوْت اللقاء

قاضى المحمدية

ومن أبيات له سبقت فى رثاء قاضى بلدة المحمدية :

أما لئن صح ما جاء البريدُ به عنه ليكثُرُن من الباكين أشياعى (١)
ما زلت أفزع من يأس إلى طمع حتى تربّع يأسى فوق أطماعى (٢)
فاليوم أنفق كنز العمر أجمعه لمّا مضى واحدُ الدنيا بإجماع

المعافرى

وقال يرثى أبا إسحق إبراهيم المعافرى التونسى ، وكان شيخاً جليلا مشى فى جنازته — اعترافاً بجميله — المعز بن باديس .

يا للرزيئة فى أبى إسحق ذهب الحِمام بأنْفَسِ الأعلاق

---

(١) أشياعى : أتباعى .
(٢) غلب يأسى طمعى .

ذهب الحمام بخاشع متبتل تبكى العيونُ عليه باستحقاق
ذهب الحمام ببدر تِمٍّ لم يَدَع منه الردى إلا هلالَ محاق (١)
وحوتْ جُنُوب اللحدِ بحراً زاخراً تركَ البحارَ الخضر وهى سواق (٢)
فاليوم أغلق كل فهم بابَه لما فقدنا فاتح الأغـــلاق
ما القيروانُ أذقتَ ثكلك وحدها قد ذاق ثكلك سائر الآفاق

ومن رثاء الدول (١)

وكان لنكبة القيروان أكبر الأثر وآلمه على نفس ابن رشيق ، فانطلق يبكى مجدها وحضارتها بنونيته الكبرى التى منها :

مرثية القيروان

كم كان فيها من كرامٍ السادة بيض الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتـــقى لله فى الإسرار والإعـــلانِ
ومهذبٍ جم الفضائلِ باذلٍ لنوالـــه ؛ ولعرضه صوَّان
وأئمة جمعـــوا العلوم وهذبوا سنن الحديث ومشكل القرآن
عُلماء إن ساءلتهم كشفوا العمى بفقاهـــة وفصاحـــة وبيان
وإذا الأمورُ استبهمت واستغلقت أبوابُهـــا وتنازع الخصمان
حلوا غوامض كل أمر مشكل بدليل حق واضح البرهان

---

(١) بدر التم القمر فى أوج اكتماله ، والمحاق القمر فى آخر الشهر .

(٢) سواق . ساقية .

(٣) رثاء الدول باب معروف فى الشعر العربى لا سيما فى المغرب والأندلس وقد جلّ فى هذا الباب ابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب ومحمد بن عمارة اليمنى وغيرهم من الشعراء ولعل ابن رشيق لا يقل عن أحدهم بقصيدته هذه المعارضة بقصيدة :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

* * *

هجروا المضاجع قانتين لربهم ... طلبا لخير معرّس ومعان
وإذا دجا الليلُ البهيمُ رأيتهم ... متبتلين تبتـــلَ الرهبان
فى جنة الفردوس أكرم منزل ... بين الحسان الحور والغلمان
تجروا بها الفردوسَ من أرباحهم ... نعم التجارةُ ، طاعةُ الرحمن
المتقين اللهَ حـــقَّ تُقَاته ... والعارفين مكايد الشيطـــان

* * *

وترى جبابرةَ الملوك لديهمُ ... خُضْعَ الرقاب نواكسَ الأذقان
لا يستطيعون الكلامَ مهابةً ... إلا إشـــارةَ أعين وبنان
خافوا الإلهَ فخافهم كلُّ الورى ... حتى ضراءُ الأسد فى الغيران
تنسيك هيبتُهُم شماخة كل ذى ... مُلْكٍ وهيبةَ كل ذى سلطان
أحلامهم تزن الجبالَ وفضلهم ... كالشمس لا تَخفى بكل مكان
كانت تعد القيروانُ بهم إذا ... عُدّ المنابر زهرةَ البلـــدان
وزهت على مصرٍ وحُقّ لها كما ... تزهو بهم وغدت على بغدان[1]

* * *

حسنت فلما إذْ تكامل حسنها ... وسما إليها كل طرف ران
وتجمعت فيها الفضائل كلُّها ... وغدت محل الأمن والإيمان
نظرت لها الأيام نظرة كاشح ... ترنو بنظرة كاشح معيـــان
حتى إذا الأقدار حُمّ وقوعها ... ودنا القضاءُ لمدة وأوان
أهدت لها فتنا كليل مظلم ... وأرادها كالناطح العيدان[2]

---

(١) كذا فى الأصل – وبغدان لغة فى بغداد .

(٢) المعيان من العين بمعنى الحاسد ، الشديد الإصابة بالعين .

(٣) « العيدان » كذا فى الأصل ، ولعلها الملوان : الليل والنهار .

بمصائب من فادع وأشائب ... ممن تجمع من بنى دهمان[١]
فتكوا بأمة أحمد ، أتراهمُ ... أمِنـوا عقاب الله فى رمضان
نقضوا العهود المبرمات وأخفروا ... ذِمَمَ الإله ولم يفوا بضمان
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا ... سَبْىَ الحريم وكَشْفَةَ النِّسوان
ساموهم سوء العذاب وأظهروا ... متعسفين كوامن الأضغان[٢]
والمسلمون مقسَّمون تنالهـم ... أيدى العصاة بذلة وهوان
ما بين مصْطرع وبين معذب ... ومقتل ظلما وآخرَ عان[٣]
يستصرخون فلا يغاث صريخهم ... حتى إذا سئموا من الإرنان[٤]
بادَوا نفوسَهم فلما أنفـذوا ... ما جمعوُّا من صامت وصوان
واستخلصوا من جوهر وملابس ... وطرائفٌ وذخائر وأوان[٥]
خرجوا حفاةً عائذين بربهم ... من خوفهم ومصائب الألوان

* * *

هربوا بكُل وليـدةٍ وفطيمة ... وبكل أرملةٍ وكل حَصَان[٦]
وبكل بِكر كالمهاة غريرة ... تَسْبى العقولَ بطرفها الفتان[٧]
خـود مبتلةِ الوشاح كأنها ... قمر يلوح على قضيب البان[٨]

* * *

---

(١) الأشائب جمع أشابة والأشابة أخلاط الناس ، ويقصد ابن رشيق أن قد أغار عليها الدهماء والعامة والأخلاط .

(٢) كوامن ج . كامن وهو الخفى .

(٣) عان : العانى ، الأسير .

(٤) الإرنان : النشاط .

(٥) أوان : ج إناء وأصلها أوانى .

(٦) المرأة الحصان : العفيفة والعفيفة بالزواج .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية نصع بياضها .

(٨) الخود : الصبية فى مقتبل العمر .

والمسجدُ المعمورُ جامع عقبة ... خرب المعاطن مظلم الأركان (١)
قفر فما تغشاه — بعد — جماعةٌ ... لصلاة خمس، لا ولا لأذان
بيت به عُبد الإله وبُطلَتْ ... بعد الغلو عبادة الأوثان
بيت بوحى الله كان بناؤه ... نعم البنا والمبْتَنَى والبانى
أعظِمْ بتلك مصيبةً ما تنجلى ... حسراتُها أو ينقضى الملوان (٢)
لو أن ثهلانا أصيب بعشرها ... لتدكدكت منها ذرى ثهلان (٣)

* * *

حزنت لها كُوَرُ العراق بأسرها ... وقرى الشآم ومصرَ والخرسان (٤)
وتزعزعت لمصابها وتنكدت ... أسفًا بلاد الهند والسندان
وعفا من الأقطار بعد خلائها ... ما بين أندلس إلى حلوان
وأرى النجوم طاعن غير زواهر ... فى أفقهن وأظلم القمران (٥)
وأرى الجبال الشمَّ أمست خشَّعاً ... لمصابها وتزعزع الثقلان (٦)
والأرض من وله بها قد أصبحت ... بعد القرار شديدةَ الميلان
أترى الليالى بعد ما صنعت بنا ... تَقضِى لنا بتواصل وتدان
وتعيد أرض القيروان كعهدها ... فيما مضى من سالف الأزمان
من بعد ما سلبت نضائر حسنها الـ ... أيام واختلفت بها ميتان (٧)
وغدت كأن لم تغن قطُّ ولم تكن ... حرما عزيز النصر غير مهان (٨)
أمست وقد لعب الزمان بأهلها ... وتقطعت بهمُ عُرا الأقران

---

(١) جامع عقبة : هو عقبة بن نافع فاتح تلك البلاد أول دخول الإسلام فيها .
(٢) الملوان : الليل والنهار .
(٣) ثهلان : جبل مشهور يضرب به العرب المثل فى العظم .
(٤) يدل البيت على تضامن البلاد العربية قديماً .
(٥) القمران : الشمس والقمر من باب التغليب كما يقولون « العمران » يعنون عمر وأبا بكر .
(٦) الثقلان : الإنس والجن .
(٧) كذا فى الأصل .
(٨) كأن لم تغن : تزدهر والتعبير مأخوذ من القرآن « كأن لم تغن بالأمس » .

فتفرقوا أيدى سبا وتشتتوا بعـــد اجتماعهمُ على الأوطان

وقد شاع رثاء الدول فى المغرب والأندلس وقصيدة لسان الدين بن الخطيب أشهر من أن نوردها .

* * *

ز — الشكوى :

وشاعر كابن رشيق عاش بين الحساد والمنافسين ، ولاقى من عنت الأيام كما لاقى من نعمائها لا يخلو شعره من شكوى . فمن ذلك : قوله يشكو حرفة الأدب :

حرفة الأدب

أشقى لعقلك أن تكون أديباً أو أن يرى فيك الورى تهذيبا
ما دمت مستويا ففعلك كله عِوجٌ وإن أخطأت كنت مصيبا
كالنقش ليس يصح معنى خَتمِه حتى يكون بناؤه مقلوبا

التأسى

وقال يشكو التعزى والتأسى ، وأنهما لا يذهبان بالأسى وإنما يجلبانه ويثيران أسبابه .

رأيت التعزىَ ممـــا يهيج على المـــرء ساكن أوصابه [1]
وما نال ذو أسْوة سـلوةً ولكـــن أتى الحزنَ من بابه
تفكـــر فى مثـــل أرزائه فذكـــرّه ما بـــه ما بـــه [2]

---

(١) أوصاب : جمع وصب وهو المرض والوجع الدائم ونحول الجسم .

(٢) الأرزاء جمع رزء وهو المصاب ينزل بالمرء وفى البيت جناس تام كقول القائل :

عضنا الدهـــر بنـــابه ليت ماحـــل بنـــا به

ليلة قصيرة

وله يشكو انصرام الليل وسرعة إقبال الصباح لعلة ذكرها :

أيها الليل طر بغير جنـــاح ... ليس للعين راحة فى الصباح (١)
كيف لا أبغض الصَّباح وفيـــه ... بان عنى أولو الوجوه الصَّباح (٢)

بعوضة

وقال يشكو البعوض :

يا رب لا أقوى على دفع الأذى ... وبك استعنت على الضعيف الموذى
مالى بعثتَ إلىَّ ألفَ بعوضـــة ... وبعثتَ واحدةً إلى نمروذ ؟

شكوى الزمان

وله فى شكوى الزمان والتصبر :

ما أنت يا دهـــرُ بالأهوال تفجعُنا
إلا كمن يقـــرِعُ الجلمودَ بالخزف (٣)
إن كنت نتَ لسيف الغدر مُنْتَضِيًا
فإنـــنى من جميل الصـــبر فى كنف

جفوة

وقال يشكو بعض الغلمان ، وذلك أنه كان لمحمد بن حبيب التنوخى معشوق لا يزال يزوره إذا إذا غاب عن منزله ، فإذا حضر لم يأته وكثر ذلك بينهما ، فدعا ابن رشيق يوماً ، وقال له : تعال نصنع فى ذلك المعنى ، فصنع الأبيات على لسان محمد وهى :

ما بالنا نُجفَى فلا نُوصَل ... إلا خلافًا مثل ما تفعل

---

(١) يطلب إلى الليل ألا ينقضى ليستمتع فيه كثيراً « طير بغير جناح » .
(٢) الصباح : جمع صبيح وهو المليح .
(٣) مأخوذ معناه من قول الآخر :
كناطح صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

تأتى إذا غبنا ، فإن لم نغب جعلتَ لا تأتى ولا تسأل
كهاجرٍ أحبابَه ، زائرٍ أطلالهم بعد أن يرحلوا

صحبة الناس

وقال يشكو بعض معاصريه :

من يصحب الناس مطويًّا على دَخَلِ
لا يصحَبوه فخلُّوا كل تدخيل
لا تستطيعوا على ضَعْفى بقوتكم
إن البعوضةَ قد تعدو على الفيل
وجانبوا المزح ، إن الجدَّ يتبعه
ورب موجعة فى إثر تَقْبيل
يا قوم لا يُلقيَنِّى منكم أحد
فى المهلكات فإنى غير مغلول

(ح) التعريض والهجاء :

وقد أسبقنا أنه كان أبعد الناس عن هجاء ، وكثر ما دعا الشعراء إلى عدم التعرض لما يجلب عداوات الناس . ولذا جاء ما جاء له فى هذا الباب وأكثره تعريض لا يعرف التصريح إلا قليلا . وذلك قوله يعرض بكاتب رد أمر محمد بن هرون :

تعريض بكاتب ابن هرون

أرى بعض من أنت صيَّرتَه من الناس ، يَعْروك تعييرُه

---

(١) الأطلال جمع طلل وهو ما بقى من آثار الديار بعد هجرها .
(٢) الدخل . الغش ، وانطوى على دخل ضم صدره عليه .

تُنافِسُ أفعالَك أفعالُه وينقـص جاهَك تأثيره
كما كسفَ الشمسَ بدر الدجى وإن كان من نورها نـورُه

اعتداء

وقال ابن رشيق : كنت أميل إلى قينة اسمها ليلى ، فعشقها بعض خدام الحصون ، وكان يحسب خدمتها وكنسها لمنزله لا يثلم جاه متوليها ، فنهيته ، فلما لم ينته قلت فيه :

ظن أن الحصونَ ملكُ سليما ن وليـلى بجهله بلقيسا
وله فى العصا مآرب أخـرى حاش لله أن تكون لموسى

البرغوث

وقال فى شخص هجاه :

يا موجـعى شتما على أنـه لوْ فَرَكَ البرغوثَ ما أوجعنا
كل لـه من نفسه آفةٌ وآفـة النحلةِ أن تلسعا

مغتاب

وقال فيه أو فى مثله :

وأخرقَ أكالٍ للحم صديقه وليس لجارى ريقه بمسيغ
سكت له ضنًّا بعرضى فلم أجب ورب جواب فى السكوت بليغ

ط — العتاب :

وهو من الهجاء بسبب ، ولذلك قل فى شعره كما قل هذا الهجاء الذى كان يتحاشاه ، فمن ذلك قوله يعاتب القاضى جعفر بن عبد الله الكوفى بقصيدة طويلة هذه أبيات منها :

عتاب القاضى جعفر

وقد كنت لا آتى إليك مخاتلاً ... لديك ولا أثنى عليك تصنعاً (١)

ولكن رأيت المدح فيك فريضة ... علىّ إذا كان المديح تطوعًا

فقمت بما لم يخف عنك مكانه ... من القول حتى ضاق مما توسعا

ولو غيرُك الموسومُ عنى بريبة ... لأعطيت منها مدعى القوم ما ادعى (٢)

فلا تتخالجك الظنونُ فإنها ... مآثمُ ، واتركْ فى للصنع موضعا (٣)

فوالله ما طولت بالوم فيكمُ ... لسانًا ولا عرضت للذم مسمعا

ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوتْ ... حبالى ولا وَلّى ثنائى مودّعا

بلى ، ربما أكرمتُ نفسى فلم تَهُنْ ... وأجللتها عن أن تذل وتخضعا

ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن ... ثقيلاً على الإخوان كلاًّ مُدفَّعا (٤)

فباينتُ لا أن العداوة باينت ... وقاطعتُ لا أن الوفاء تقطعا

ألوذُ بأكناف الرجاء وأتقى ... شماتَ العدى إن لم أجد فيك مطمعا (٥)

---

(١) المخاتل : المخادع والمخاتلة : الخداع .

(٢) الريبة : ما يريب من عمل أو سلوك .

(٣) تتخالجك : تتجاذبك .

(٤) الكل : العبء .

(٥) ألوذ : أحتمى .

تلطف

وقال ورق حديثاً :

أراك اتهمتَ أخاك الثقة وعندك مقتٌ وعندى مِقة[١]
وأثنى عليك وقد سؤتنى كما طيب العودُ من أحرقه

رجاء

وقال يعتب بعد يأس استحكم :

رجوتك للأمر المهم وفى أيدى بقايا أمنى النفس فيها الأمانيا
فساوفتَ بى الأيامَ حتى إذا انقضت
أواخرُ ما عندى قطعتُ رجائيا[٢]
وكنت كأنى نازفُ البئرِ طالبا
لاجمامِها ، أو يرجع الماءُ صافيا
فلا هو أبقى أما أصابَ لنفسه
ولا هى أعطتْه الذى كان راجيا

ى — المدائح :

ونحن نعلم أن ابن رشيق عاش حياته للمعز بن باديس ، ولابن أبى الرجال وزيره وكاتبه ، ثم لتميم بن المعز ، ومع ذلك فما وصل إلينا من شعر المدح عنده لا يتكافأ وهذه الحياة الحافلة الطويلة ، ولكن لعله ضاع فى غمار ما ضاع من آثاره . وإليك بعض ما وقفنا عليه فى هذا الباب. قال يخاطب واحداً من ممدوحيه لم نعرف شخصه :

---

(١) المقة : الحب وتوافق الرجلان : تحابا .
(٢) ساوفت وسوفت بمعنى .

يراعة ومداد

كتبت ولو أنى أستطيعُ لإجلال قدرك دون البشر
قددتُ اليراعةَ من أملى وكان المدادُ سوادَ البصر

لدن الرماح

وقال يمدح المعز من قصيدته التى دخل بها فى خدمته فلزم الديوان وأخذ الصلات :

لُدْنُ الرماحِ لما يسقى أسنتها من مهجة القَيْل من ثُغرة البطل[١]
لو أثمرت من دم الأعداء سُمْرقَنًّا لأورقتْ عنده سُمْرُ القنا الذبل[٢]
إذا توجه فى أولى كتائبه لم تفرق العينُ بين السهل والجبل
فالجيش ينفض حوليه أسنته نفض العقاب جناحيه من البلل[٣]
يأتى الأمور على رفق وفى دعة عجلان كالفلك الدوار فى مهل

رايات

وله فيه

وكأنما راياتُه مشهورةٌ يوم اقتحامه
أبدًا تشير إلى العد وّ بسلمه أو بانهزامه[٤]

وثن الملاحة

وله فيه كذلك :

ذمت لعينك أعين الغزلان قمر أقر لحسنه القمران

---

(١) القيل : لقب للسادة والملوك من حمير .
(٢) القنا الذبل : صفة جودة فى الرماح . ج . ذابلة .
(٣) العقاب : طائر من الجوارح يطلق على الذكر والأنثى .
(٤) بسلمه : بانتصاره وسلامته .

ومشت ، ولا والله ماحقْفُ النَّقا ... مما أرتْكَ ولا قضيبُ البان[١]
وثنُ الملاحةِ غير أن ديانتى ... تأبى على عبادةَ الأوثان
يا بن الأعزة من أكابر حمير ... وسلالةِ الأملاك من قحطان
من كل أبلجَ آمرٍ بلسانه ... يضع السيوفَ مواضع التيجان[٢]

ك ــ الخمر :

و برغم ما يبدو من ولوعه بها فى بعض ما يقول فإن ما وصل إلينا عنه فيها نزر يسير لا يسمح باعتباره من أصحاب الخمريات ، وهاك بعض ما قال : قال من خمرية لم أعثر منها على غير هذه الأبيات

من خمرية

قَدْر المدامة فوق قدر الماء ... فارغَبْ بكأسك عن سوى الأكفاء[٣]
مالى ومزجَ الراح إلا فى فمى ... بالريق من فم غادة حسناء[٤]
ذاك المزاج وإن تعدانى الذى ... فى المُزْنِ من ذى رقة وصفاء
أشهى وأبلغُ فى الفؤاد مسرةً ... من غيره وأدبُّ فى الأعضاء
لى الصَّرْفُ إن فرح النديم ولم أكن ... مستأثراً فيها عن الندماء[٥]

كما جاء بها ربها

وقال :

قلت لمن ناولنى مُرةً ... ما بى حب الغيد بل حبها[٦]

---

(١) الحقف : ما أعوج من الرمل .
(٢) البلجة : البياض .
(٣) الاكفاء : ج كفء وهو الند المماثل .
(٤) الراح : الخمر .
(٥) الصرف : الخالصة من المزج .
(٦) الغيد : ج غادة . وهى الفتاة الحسناء .

لا تسقنى الراح ممزوجة واشرب فما يمكننى شربها
ما راحتى فى الراح إن غيرت دعنى كما جاء بها ربها

معتقة

وقال :

معتقة يعلو الحبابُ متونها فتحسبُه فيها نثير جُمَّان(١)
رأت من لجين راحةً لمديرها فطافت له من عسجدٍ ببنان (٢)

ل ــ الشيب :

وهو باب طرفه الشعراء بين راض عنه ، وساخط عليه ، ومما قاله فيه ابن رشيق :

بلق الغراب

وإن لم تعجبى ببياض شَعر فلا تستغربى بَلَقَ الغراب(٣)
تعافين المشيبَ وليس هذا ولكن هذه شِيَةُ الشباب(٤)

الشيب أوفى من الشباب

وقال أيضاً :

أراك للشيب ذا اكتئاب فأين تمضى عن الصواب
إن كنت ترعى الوفاء حقا فالشيبُ أوفى من الشباب

---

(١) الجمان : اللؤلؤ واحدته جمانة .
(٢) اللجين الفضة ، والعسجد الذهب وكلاهما فى البيت على التشبيه .
(٣) بلق الغراب : بياضه فى سواده .
(٤) عاف الشىء : إذا كرهه .

م — التوبة :

وهذا باب قال فيه ابن رشيق، وكأنما أحس بما فرط فى حق نفسه وفى جنب الله فراح يستغفر الله مما قدم؛ فمن ذلك قوله يظهر الندم على ما فات :

دعاء ورجاء

إذا أتى اللهُ يوم الحشر فى ظُلَل ... وجيء بالأمم الماضين والرسل
وحاسب الخلقَ من أحصى بقدرته ... أنفاسهم وتوفاهم إلى أجل
ولم أجد فى كتابى غير سيئة ... تسوؤنى وعسى الإسلامُ يسلم لى
رجوتُ رحمة ربى وهى واسعة ... ورحمة الله أرجى لى من العمل